فلسفة الجمال
بين سقراط وأفلاطون

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

يذهب كثير من مؤرخي الفلسفة الى ان علم الجمال قد نشأ لاول مرة في تاريخ الفكر على يد سقراط حينما وجه الى هيبياس سؤاله المشهور : « ما هو الجمال ؟ » ونحن نعرف كيف ان هيبياس قد أجاب على هذا السؤال باحالة سقراط الى بعض الموضوعات الجميلة ، فذهب الى ان الجمال صفة تطلق على الفرس ، والذهب ، والمرأة ... الخ. بيد أن سقراط لم يلبث أن اعترض على اجابة هيبياس بقوله : « انني لا أسألك ما هي الاشياء التي يمكن ان تعد جميلة ، وانما أسألك ما هو الجمال ؟ » . ولا شك ان اعتراض سقراط انما يدل دلالة واضحة على ان مهمة الفيلسوف هي البحث عن « ماهية » الجمال ، دون التوقف عند ضروب الجمال الجزئية . وكما ان « العلم » لا ينحصر بتمامه في الفلك او الحساب او الهندسة، بل هو شيء أعظم وأسمى من كل تلك المعارف الجزئية ، فان « الجمال » ايضا لا يمكن ان يرد الى موضوع بسيط بعينه، فضلا عن اننا لا يمكن ان نحصره في نطاق بعض الموضوعات الجميلة ، وتبعا لذلك فقد رأى سقراط انه لا بد لنا من تجاوز شتى المظاهر الناقصة ، والعلو على سائر الاشباح الحسية الزائلة ، من اجل البحث عن « المثال الخلاق » أو « الصورة المبدعة » التي تكمن من وراء كل هذه الظواهر الحسية العابرة . وهذه النظرية السقراطية في تفسير « الجمال » هي بمثابة الفكرة الاصلية التي ستنبعث منها كل فلسفة افلاطون الجمالية القائمة على جدل الحب « او الاردس » .

وقد روى لنا اكسينوفون في مأدبته كيف كان سقراط يعلم الرسام براسيوس والمثال كليتون الطريقة المثلى لتصوير خير ما في النموذج الحي ، وذلك بالالتجاء الى لغة الحركات من اجل التعبير عن جمال النفس الحقيقي ، ومن هنا فقد نظر سقراط الى الفنان على انه انسان ماهر يخترق الغشاء الجسدي ، وينفذ الى أعماق الجمال الجوهري للنفس . وهذه النظرية السقراطية في تفضيل الجمال النفسي سوف تتردد من بعد لدى افلاطون، خصوصا في محاورته « فيدون » حيث سنراه يجعل من الجسد مجرد قبر للنفس ! ولكننا مع ذلك نجد سقراط في موضع اخر يربط فكرة « الجميل » بفكرة « الملائم » أو « النافع » ، فنراه يقرر ان كل الاشياء التي تحقق منفعة لبني البشر انما هي جميلة وصالحة في الوقت نفسه، بوصفها موضوعات ملائمة ذات فائدة . فاذا وصفنا ـ مثلا ـ بيتا ما من البيوت بأنه جميل ، كان معنى هذا الوصف ان البيت الذي نحن بصدده صالح للسكنى ، وانه ملائم للغرض الذي جعل من اجله ، ولا يقتصر سقراط على الربط بين « الجمال » و «الخير» ، أو القول بفكرة «الجمال الصالح»، بل اننا نجده يقف من الجمال موقفا نفعيا ، فيضع «الجميل» في خدمة « الملائم » . ولعل هذا هو السبب فيما ذهب اليه بعض مؤرخي الفلسفة من ان نزعة سقراط الجمالية هي على النقيض تماما من كل نزعة صورية او شكلية، نظرا لانها تهتم بالمضمون اكثر مما تهتم بالشكل .

بيد أن الرأي الذي يكاد يجمع عليه معظم مؤرخي التفكير الجمالي هو اننا لا نستطيع ان ننسب الى سقراط نظرية كاملة في الجمال والفن ، ما دام كل ما نجده لدى سقراط انما هو القول بان للنفس اشعاعا الهيا يجعل منها مصدرا لذلك الجمال الروحي الفائق للطبيعة ، الذي هو غاية جميع الفنانين . وقد يكون من الصعوبة بمكان أن يميز الباحث أقوال سقراط عن أقوال تلميذه افلاطون، خصوصا وأن افلاطون قد ردد الكثير من آراء أستاذه سقراط، بعد أن عاد اليها معدلا ومنقحا ومكملا . ولكن ربما كان في استطاعتنا ان نقول ان مذهب سقراط في الجمال نفعي، في حين اننا نلتقي عند افلاطون ـ لاول مرة ـ بفكرة استقلال الجمال . ومع ذلك ، فان القول بالجمال المطلق، والربط بين الحب والجمال، والانتقال من الجمالات الجزئية الى مثال الجمال « او الجمال بالذات » ، انما هي سمات مشتركة تجمع بين فلسفة الجمال عند كل من سقراط وافلاطون . وهذا ما عبر عنه افلاطون نفسه في محاورته فيدون ، حينما نراه يقول على لسان استاذه سقراط: «ان ثمة جمالا أول هو الذي يخلع ـ بوجوده ـ طابع الجمال على تلك الاشياء التي نسميها جميلة ، بغض النظر عن الطريقة التي تتحقق على نحوها المشاركة بينه وبينها » . (محاورة فيدون ١٠٠ هـ) .

ولم يقتصر افلاطون على الحديث عن الجمال في محاورته المعروفة « فيدون » ، بل هو قد ناقش الكثير من مشكلات الجمال ، والحب ، والفن ، في محاورات اخرى عديدة كالمأدبة ، و فدروس ، والجمهورية ، وغيرها . ونحن نعلم ان كل الفلسفة الافلاطونية انما تقوم في الاصل على « جدل صاعد » يتجلى في سعي الارادة نحو الخير، ونزوعها نحو الانتقال من حالة الحرمان الى حالة الامتلاك. و « الحب » في رأي افلاطون انما هو اشتهاء صادر عن حرمان ، ومبدأه هو الخير ، كما أن غايته ايضا هي الخير. وليس « الجدل الصاعد » سوى سلم تلامس أدنى درجاته الارض ، بينما ترقى أعلى درجاته الى ملكوت الالهة. وليس في وسع النفس الانسانية أن تنتقل من أدنى درجة الى أعلى درجة ، اللهم الا اذا انتقلت عن طريق « الحب » من جمال الى جمال ، حتى تصل في خاتمة المطاف الى المبدأ المطلق الذي يصدر عنه كل جمال .

وأول ما يجتذب النفس الانسانية انما هو ما في الطبيعة من أشكال وألوان وأصوات جميلة ، أعني «الجمال الطبيعي » ، خصوصا جمال الجسم البشري . وحينما

تدرك النفس هذا الجمال ، فان انفعالا مفاجئا يباغتها ويسيطر عليها ، دون ان تستطيع تحديد مصدره ، بل دون أن تقوى على فهم السر فيما يدخله على وجودها من تحول سحري عجيب ! والواقع أن الانسان حين يرى الشيء المحبوب ، فانه سرعان ما يقف مبهوتا أمامه ، وكأن نشوة غريبة من الدهشة والغبطة قد لعبت برأسه ، أو كأنما هو قد تعرف على شيء سبق له ادراكه ! وهنا يبدو لنا أننا قد عثرنا على خير كان ضائعا أو منسيا ، ولكن غيابه كان مبعث قلقنا ، ومثار جزعنا ! وليس هذا الشعور مجرد وهم خادع قد انبعث عن مظهر كاذب ، بل هو ادراك حقيقي يظهرنا على ان الجمال هو في الواقع خيريا ، وأنه قد سبق لنا ان تملكناه في حياة سابقة ، حينما كنا نحيا مع الالهة ، وحينما كنا ندرك تلك المثل الازلية او الماهيات الخالدة التي يتألق في وسطها مثال الجمال ! ولما هبطنا الى هذا العالم ، أصبح في وسعنا ان نتعرف على مثال « الجمال » بوضوح وتميز ، أكثر مما نتعرف على غيره من المثل الاخرى ، وذلك عن طريق حاسة « البصر » التي هي أقوى حواسنا نفاذا واشعاعا . ولكن على الرغم من ان البصر هو اكثر حواسنا دقة وارهافا ، الا انه مع ذلك أعجز من ان « يرى » الحكمة ! ولو قدر لصورة الحكمة ان تتمثل امام أبصارنا بوضوح وتميز كما يتمثل الجمال ، لغمر قلبنا حب عجيب لا سبيل الى وصفه ! ولكن الجمال وحده هو الشيء الذي يبدو لنا واضحا جليا كأعظم ما يكون الوضوح والجلاء ، والجمال وحده هو اكثر الاشياء استثارة لشعور الحب في نفوس بني البشر . « وحينما يضيء الجمال وجه الكائن المحبوب ، مرسلا عليه شعاعا واحدا من اشعاعاته ، فهنالك ترتجف النفس ، وتنشط ذكرياتها ، ويعاودها انفعال من تلك الانفعالات القديمة ، وعندئذ لا تلبث النفس ان تتأمل ذلك الموضوع المحبوب ، وتتعبد له كما لو كان الها من الالهة ، وقد تضحي في سبيله كما يضحى في سبيل صورة الاله ، أو في سبيل الاله نفسه »! (فدروس ، ٢٥٠ أ ، ب ، حـ ، د) .

بيد أن مثل هذه التضحية انما تنطوي على خلط بين الصورة والحقيقة ، أو بين الظل والنور ، أو بين الموضوع الذي نتعلق به لما فيه من عناصر يشترك فيها مع غيره ، والموضوع الذي نحبه ونتعلق به لذاته . والحق ان الجمال الذي يكمن في جسم ما من الاجسام انما هو أخ لذلك الجمال الذي يكمن فيما عداه من الاجسام . ومن هنا فقد يكون من واجبنا ان نرجع كل تلك « الجمالات » المتفرقة الى ضرب واحد من الجمال يضمها جميعا في وحدته ، ألا وهو « الجمال المحسوس » . وحينما تنفذ هذه الفكرة الى صميم النفس ، فهنالك لا بد للمرء من ان يعدل عن التعلق بجمال واحد ، لكي يعجب بجمال الصور او الاشكال ، أينما تألق أمام ناظريه . وسرعان ما تفطن النفس الى ان ما يخلع على الاشكال حسنها انما هو قدرتها على التعبير عن صفات النفس في صميم المادة .. أليس ما نعجب به في الاجسام ، انما هو حياتها . وحركتها ، ونظامها ، ووحدتها ، وتنوعها الخصب ؟ ومن أين تأتي الحياة والوحدة ، ان لم يكن ذلك من **النفس** التي هي مبدأ الحركة والانسجام؟ فلنرتفع اذن من المعلول الى العلة ، ولنتعلق بجمال النفس ، لا جمال البدن . ولنعلم أيضا ان جمالا واحدا هو الذي يضفي على النفوس الجميلة كل ما تتمتع به من جمال ، ألا وهو الجمال الخلقي أو جمال النفس .

واذا كان الجمال النفسي كثيرا ما يأخذ بمجامع قلوبنا ، فذلك لان النفس مبدأ نشاط ، وما يثير مشاعر الحب الاولية عندنا انما هو في العادة الافعال الجميلة . ولكن من المؤكد أن هناك فيما وراء الفعل شيئا أعمق منه ، وليس الفعل منه الا بمثابة مظهر خارجي ، وآية ذلك ان الفعل النبيل السخي ليس سوى مجرد تعبير خارجي عن نبل المشاعر وسخاء العواطف . فلا بد لنا اذن من ان ننتقل من دائرة الفعل الى دائرة العاطفة ، ما دامت العواطف أسمى بكثير من الافعال . ولكن ، هل نكون عندئذ قد بلغنا نهاية الشوط ؟

هذا ما يجيب عليه افلاطون بقوله ان العاطفة لا يمكن ان تكون جميلة ، اللهم الا اذا صدرت عن فكرة جميلة ، فان ما يحرك القلب انما هو ما يدركه العقل . واذن فلا بد لنا ــ مرة أخرى ــ من ان نرقى درجة اخرى من درجات هذا السلم الافلاطوني الصاعد ، بحيث ننتقل من دائرة العواطف الجميلة الى دائرة المعارف الجميلة . وهنا نجد انفسنا في مجال العلوم والفلسفة ، ومثل هذه المعارف النظرية هي وحدها التي تستطيع ان تشبع نهم العقل . ولكننا عندما نتعلق بالعلوم النظرية ، فاننا لا نكون عندئذ قد بلغنا الحلقة الاخيرة في سلسلة « الحب الافلاطوني » ، بل لا بد لنا من ان نصعد عبر سلم الجدل حتى ننتهي الى « الجمال المطلق » ، أو « مثال الجمال » .

والحق انه اذا كان علم « الجمال ، والخير » هو الكفيل بارضاء العقل ، فانه هيهات للقلب ان يقنع الا بامتلاك « الجميل والخير » . وحينما يندفع القلب في سورته العارمة مأخوذا بسحر الحب ، فانه سرعان ما يتحقق من ان العلم والفلسفة لا يوصلانه الى الغاية القصوى التي ينشدها . ألا تريد النفس ان تجيء سورة اخيرة فتوحد القلب العاشق بموضوع عشقه ، وتسمح له بأن ينعم بمشاهدة الجمال المطلق الذي لا يفنى ولا يتحول ؟ حقا ان في وسع الفكر ان يدرك هذا الجمال الكلي الثابت ، الازلي المطلق ، في لمحة من لمحات الحدس المباشر ، ولكن الحب وحده هو الذي يستطيع ان يستحوذ عليه ، ويتملكه تملكا

صدر اليوم :

تأليف ناجي علوش

الثورة والجماهير

مراحل النضال العربي
١٩٤٨ ــ ١٩٦١
ودور الحركة الثورية

دار الطليعة ــ بيروت ص.ب ١٨١٣

مباشرا . واذن فلا بد للنفس من ان تعلو على شتى ضروب الجمال النسبي المتغير ، لكي تصل الى ذلك « الجمال الذي لا يزيد ولا ينقص ، ولا يكون جميلا من جهة ، وقبيحا من جهة اخرى ، ولا يكون جميلا في وقت ، وغير جميل في وقت اخر .. الخ . » . ومعنى هذا أن غاية الحب القصوى ، انما هي رؤية « الجمال بالذات » ، أي الجمال الكلي المطلق المتعالي . وسواء نظرنا الى الجمال الحسي ، ام الى الجمال الخلقي ، ام الى الجمال العقلي ، فاننا لا بد من أن ندرك أن كل هذه الضروب المختلفة من الجمال انما توصف بأنها جميلة لمجرد مشاركتها في مثال « الجمال بالذات » . والحب الافلاطوني انما يقنع بمثال الجمال ، لانه الصورة العليا التي بها يكون الجميل جميلا . ولعل هذا ما عبر عنه افلاطون حينما قال في محاورته المأدبة : « ايه يا عزيزي سقراط ! ان الشيء الوحيد الذي يخلع قيمة على هذه الحياة ، انما هو مشاهدة الجمال الازلي الابدي . وهل يمكن ان يكون هناك ما هو أعظم من مصير هذا الانسان الفاني ، لو قُدر له أن يتأمل ذلك الجمال المطلق ، نقيا لا تشوبه شائبة ، ناصعا يرفل في أكاليل الطهر والبساطة ، عاريا لا تكسوه ألوان واشكال مصيرها الى الفناء ..؟ » (المأدبة ، ٢١٥ – ٢٢٣) .

... ولو أننا تساءلنا الان عن ماهية هذا « الجمال المطلق » الذي جعل منه افلاطون قمة جَدله الصاعد ، لوجدنا ان هذا « الجمال الاسمى » انما هو الصورة الالهية نفسها . ومهما توقف الانسان عند بعض مظاهر الجمال الزائف ، أو مهما أعمت بصيرته بعض الموضوعات الحسية البراقة ، فانه لا بد من انه يقضي كل حياته باحثا عن الاتحاد بذلك الجمال المجرد اللامادي الذي يفرض نفسه عليه ، بفضل صفائه الجوهري ونقائه الاولي . وليس البحث عن الجمال سوى مجرد نزوع نحو الابدية ، ان لم نقل بأنه رغبة في التطهّر purification أو تنقية النفس . وليس من شأن البحث عن الجمال أن يخلف في نفس الانسان مشاعر الجزع او اللهفة ، بل هو يشيع فيها عواطف المحبة والغبطة ، حتى ان الانسان الذي ينعدم لديه مثل هذا النزوع لا بد من ان يجد نفسه مضطراً الى الزحف فوق أرض الحقيقة المحسوسة دون أمل أو غبطة أو سعادة! ولولا « الجمال بالذات » ، لما استطاع الانسان ان يدرك المطلق ، او ان يعلو بنفسه فوق مستوى الوجود ، لكي يبلغ درجة الانسجام الكلي والوحدة المطلقة .. وهكذا نرى افلاطون يربط الحب بالجمال ، لكي يعود فيربط الجمال بالوَجْد الصوفي ، أو – على حد تعبير بعض الصوفية الاسلاميين – بمقام « الكشف » – extase -

ولكن على الرغم من ان افلاطون قد حاول – في مواضع كثيرة – أن ينسب الى الجمال ضربا من الاستقلال الذاتي ، الا اننا نراه يعجز عن فهم القيمة الجمالية فهما فنيا خالصا ، فيضفي عليها طابعا اخلاقيا ، ويقرر ان الجمال الحقيقي هو جمال الحق وجمال الخير . ومعنى هذا اننا نجد في الفلسفة الافلاطونية ضربا من الخَلْط أو المزج بين القيم ، وكأن الجمال هو مجرد بهاء للخير أو الحق . ولعل من هذا القبيل مثلا ما قاله افلاطون في محاورته المعروفة باسم « تيتاتوس » من أن « الشخص الذي يحسن الاجابة لا بد من ان يكون رجلا خيرا وجميلا معا » . وفي موضع اخر نراه يقرر أن « الحكم الصحيح ، والعلم ، وشتى الاحكام المترتبة عليه ، انما هي جميلة

– التتمة على الصفحة ٦٨ –

دار الاداب تقدم

دروب الحرية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سن الرشد
وقف التنفيذ
الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
* تحفة ادبية يجب ان لا تخلو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل

فلسفة الجمال

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

وطيبة في آن واحد » . وكذلك نجده يؤكد في مناسبة اخرى أنه « من الجميل أن يحكم المرء حكما صحيحا » . وكل هذه العبارات انما تدلنا على ان افلاطون قد تصور الحكيم على انه انسان عاشق محب ، تصدر عنه أعمال جميله وخيرة في آن واحد . وليست « الفلسفة » ـ بهذا المعنى ـ سوى تاكيد لوحدة « الجمال والخير » في سلوك هذا الانسان العاشق الذي يتعلق بالمطلق ، وينشد الانسجام الكلي ، ولا يقنع الا بالوحدة المطلقة .

بيد انه قد يكون من العبث ان نبحث في الفلسفة الافلاطونية عن مذهب جمالي مكتمل ، فان كل ما نجده لدى افلاطون انما هو عناصر متفرقة لنظرية في الفن ، او مجرد ملاحظات عابرة عن بعض الفنون الجميلة . وآية ذلك أن أفلاطون لم يهتم بدراسة نفسية الفنان ، كما انه لم يتوقف مطلقا عند البحث في سيكولوجية الجمهور ، بل هو قد اجتزأ ببعض الملاحظات المتفرقة حول الوظيفة الاخلاقية التي يضطلع بها كل فن من الفنون الكبرى . ولما كان اليونانيون قد دأبوا على اعتبار الشعر أسمى الفنون جميعا ، فقد وجه افلاطون جل اهتمامه الى « الشعر » . وهنا نراه يقرر ان الشعراء قد درجوا على تصوير الالهة تصويرا شائنا لا يتفق مع جلال قدرهم ، « والشاعر الذي يصف لنا الالهة وصفا مشوها انما هو كالمصور الذي لا يشبه رسمه ما صور من أشياء » (الجمهورية ٣٧٧) . ولئن كان افلاطون يعترف بان للشعر مكانته السامية في نفس الانسان ، الا انا نراه يحمل على الشعراء الذين يفسدون نفوس الاحداث باساطيرهم وتقولاتهم عن الالهه ، لانه لا يريد للشاعر ان يصبح معلم وهم ! اما اذا بقي الشاعر سديد الرأي ، عف اللسان ، او اذا اقترن الهامه بالدعوه الى الخير والسمو الاخلاقي ، فان افلاطون لا يرى مانعا من ان ينزله من جمهوريته منزلة الاحترام والتبجيل ، خصوصا وان الالهام الشعري كثيرا ما يكون بمثابة وحي الهي ينزل على قلب الشاعر ...

غير ان افلاطون لم يلبث ان عاد الى الشعراء في الكتاب العاشر من جمهوريته ، فحمل عليهم حملة شعواء ، وراح يتهم الشعر نفسه بانه مجرد محاكاة سخيفة للظواهر المحسوسة ، وتقليد مشوه لاعمال الناس ، ولما كان الفن يحاكي الوجود الطبيعي ، والوجود الطبيعي يحاكي المثل ، فان الفن بصفة عامة ، والشعر بصفة خاصة ، انما هو محاكاة المحاكاة ، او شبح الشبح ! « ولو أن الشاعر كان فاهما لطبيعة الاشياء التي يحاكيها ، لوجه نحو الاعمال الحقيقية جهدا اعظم بكثير من جهده في محاكاتها ، ولحاول ان يخلف وراءه آثارا جميلة عديدة تخلد ذكراه ، مؤثرا ان يكون ممدوحا » . (الجمهورية ، م ١٠ ، ٥٩٩) . هذا الى أن الشعر ـ في نظر افلاطون ـ كثيرا ما يكون اقرب الى الدجل والايهام منه الى الحقيقة والمثال ، وهو ـ كالتصوير ـ ان رفعنا عنه سحر اللفظ والايقاع ، بدا شاحبا تافها ! ومثل الشاعر كمثل المصور ، من حيث ان كلا منهما يحاكي الاشياء ، وان محاكاته كثيرا ما تكون وليدة الجهل . « فالمحاكاة عنده مجرد لهو وتسلية » وهي ليست عملا جديا في كثير او قليل » . (الجمهورية ، م ١٠ ، ٦٠١) . ولو اننا نزعنا عن القصائد كل ما تنطوي عليه من تشبيهات لفظية واوزان موسيقية ، لكي نحيلها الى مجرد كلام منثور عادي ، لفقدت كل ما فيها من عذوبة وسحر ، ولاصبح مثلها كمثل الحسناء الذابلة التي فقدت شبابها وصارت بلا رونق أو بهاء !

ولا يختلف موقف افلاطون من « التصوير » عن موقفه من « الشعر » ، فان فن الرسم او التصوير هو عنده مجرد محاكاة للمظاهر لا للحقائق . ولكن التصوير أيضا هو من بين جميع الفنون أكثرها خطرا ، لان المصور يخدع الناس بلوحاته التي تقلد الحقيقة ، فيقدم لهم عملا يقوم على الايهام بالالوان والاشكال والاضواء . والمصور لا يدري من امر الموضوعات التي يرسمها شيئا ، لانه لا يستعمل تلك الموضوعات ، ولا يعرف كيف يصنعها ، وانما هو يقتصر على محاكاتها كما تبدو له . ونحن نعرف كيف ان اشياء متفقة في الحجم قد تظهر لنا مختلفة حجما ، نظرا لبعدها عن عيوننا ، كما ان بعض الموضوعات قد تظهر لنا معوجة في الماء ، ومستقيمة اذا خرجت من الماء ، ولما كان المصور يتمسك بالمحسوسات ، ويحرص على اظهارها لنا كما تبدو له ، فاننا نراه يصور لنا أشياء بعيدة كل البعد عن الحقيقة . ومعنى هذا ان المصور لا يحاول ان يقوم ما بنا من نقص طبيعي ، بل هو يستند الى هذا النقص ويقيم عليه كل فنه التمثيلي . وعلى الرغم من ان افلاطون يسلم بان التصوير صناعة ، الا انه يذهب الى ان الصناع ثلاثة : الله ، والصانع ، والمصور . ولكن ، لما كان التصوير محاكاة المحاكاة « لانه لا يحاكي الشيء الاصلي المخلوق ، بل يقتصر على تقليد صنع الصانع » ، فان المصور ـ هو من بين سائر

صدر حديثا :

- **تجارة الرقيق في الشرق الاوسط**
  تأليف س. اوكلاغان
- **فلسفة القلق**
  مطاع صفدي
- **العرب وتجربة المأساة**
  تأليف صدقي اسماعيل
- **واقع الفكر اليميني**
  سيمون دي بوفوار ، ترجمة جورج طرابيشي
- **المنهجية والسياسة**
  تأليف ملحم قربان
- **السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق**
  تأليف الاستاذ صلاح الدين البيطار
- **دراسات في القومية**
  تأليف الاستاذ ميشيل عفلق ومنيف الزرار وغيرهم .

منشورات دار الطليعة ـ ص.ب ١٨١٣

الصناع ـ أدناهم جميعا . (الجمهورية ، ١٠ ، ٥٩٧) .

بيد أن افلاطون قد عاد الى « التصوير » في محاورته « القوانين » ، فقال ان من واجبنا ان ننشد في فن التصوير ذلك المثل الاعلى الذي ضربه لنا اجدادنا واسلافنا ، وبذلك نعمل على تخليد تلك النماذج التي خلفها لنا الاقدمون. وهنا يشير افلاطون الى الفن المصري ، فيقول ان العادة قد درجت في مصر على اتباع اساليب فنية معينة، ومراعاة تقاليد فنية خاصة، دون ان يكون من حق المصورين المحدثين الخروج على تراث الاباء ، او ادخال اي تعديل على فنون الاجداد . ومن هنا فان « اللوحات القديمة ليست اجمل ولا أقبح من اللوحات الحديثة ، بل ان هذه وتلك قد صيغت بصنعة فنية واحدة » . (محاورة القوانين ، ٦٥٦) وهذه العبارة ان دلت على شيء ، فانما تدل على ان افلاطون قد انتصر لضرب من «الفن الكهنوتي» hiératique فرفض بالتالي كل « نزعة تجديدية » في مضمار الفن . ولعل هذا هو السبب فيما ذهب اليه بعض مؤرخي الفكر اليوناني من ان افلاطون قد أيد دائما انصار القديم ضد دعاة التجديد . ولم يقف افلاطون عند هذا الحد، بل هو قد رفض ايضا شتى العمليات الفنية التصويرية التي يترتب عليها في العادة ان تبدو الصور من بعيد ذات اتجاه، فاذا ما اقتربنا منها قليلا تلاشى كل شيء ، ولم يتبق سوى مجرد مزيج مختلط من الالوان . وآية ذلك اننا اذا نظرنا الى أمثال هذه الصور من بعيد ، فاننا نرى سطوحا تمثل بشكل غامض اشجارا ، او فواكه ، او جبالا ، او جسرا ، او ما الى ذلك . واما حين ننظر اليها عن كثب ، فاننا سرعان ما نجد انفسنا بازاء كتل عديمة الصورة لا تكاد تشبه شيئا! وهكذا يخلص افلاطون الى القول بان«التصوير معلم اوهام ، لانه يقدم لنا عن كثب صورا غامضة غير متمايزة ، ويعرض علينا من بعيد صورا خادعةغير صادقة»!

ولكن ، اذا كان افلاطون قد اشتط في حكمه على كل من الشعر والتصوير ، فاننا نراه ـ على العكس من ذلك ـ يعلي من شأن « الموسيقى » ، وينسب اليها دورا جوهريا في حياة الفرد بوصفها مظهرا لانسجام النفس ، وفي نظام الدولة باعتبارها أداة تثقيف ضرورية نافعة. ولعل من هذا القبيل مثلا ما ورد على لسانه في الكتاب الثالث من « الجمهورية » من ان « الايقاع واللحن يستقران في اعماق النفس ، ويتأصلان فيها ، فيبثان فيها ما يقترن بهما من جمال، ويجعلان المرء مهذبا حلو الشمائل.. » (م٣، ٤٠٢). ولكن افلاطون لا يريد ان يستبقي من الالحان الموسيقية تلك الالحان الرخوة التي هي اقرب ما تكون الى الموسيقى المخنثة ، بل هو يرى ضرورة الاقتصار على ضربين فقط من الموسيقى ، الا وهما الموسيقى الحربية التي تبث في نفس الجندي الحماسة والقوة ، والموسيقى الهادئة التي تشيع في نفس المواطن الطمأنينة والهدوء . وهذان النوعان من الموسيقى ـ اعني اللحن المثير واللحن الهادىء ـ يمثلان حالتي الانسان العادي في الشدة والرخاء ، او في الشجاعة والهدوء . (الجمهورية ، م ٣ ، ٣٩٩) . وفي الحالة الاولى تقوم الموسيقى ببث روح الحماسة في النفس ، فتدفع بالمحارب الى الاقدام على الجهاد واتيان جلائل الاعمال. وأما في الحالة الثانية ، فانها تحدث ضربا من «الانسجام» أو «التوافق» في نفس الانسان ، وهذا الانسجام ـ في رأي افلاطون ـ انما هو « الفضيلة » بعينها . وبهذا المعنى يمكن القول بان الموسيقى فن ينطوي على قيمة اخلاقية، ما دام في وسع المربي ان يتخذ منها اداة تثقيف او تهذيب . وفي كلتا الحالتين ، نرى افلاطون ينسب الى فن الموسيقى وظيفة اجتماعية هامة ، لانه يربط هذا الفن بكل من الاخلاق والسياسة ، ويجعل له دورا أساسيا في حياة « الدولة » .

اما الفنون الاخرى ـ كالنحت ، والعمار ، والفن المسرحي ـ فانها جميعا في نظر افلاطون فنون سامية ذات قيمة ، لانها تقدم لنا من ضروب التناسب والانسجام ما يتفق مع المبدأ الافلاطوني في تعريف « الجمال » ، ولما كانت هذه الفنون تثير في النفس لذة جمالية خالصة هي وليدة الشعور بالانسجام او التوافق ، فان افلاطون يفسح لها مجالا واسعا في نظامه السياسي . واللذة الجمالية في رأي افلاطون انما هي تلك اللذة النقية الخالصة التي تحقق للنفس اشباعا خاصا يقوم على التناسب والتوفق والانسجام. ولكن افلاطون حين يتحدث هنا عن « التناسب » ، فانه لا يعني ضربا من التناسب الرياضي ، بل هو يعني تناسبا دقيقا رقيقا يختلط فيه الانفعال المحض بالسعي العقلي المنزه عن كل غرض ...

والظاهر ان افلاطون قد عاد في شيخوخته الى النظرية الفيثاغورية في العدد ، فأدخل في فلسفته الجمالية « على نحو ما عبر عنها في محاورتي فيلابوس وطيماوس » عنصرا كميا واضحا ، كما ربط بين فكرة الجمال من جهة، وفكرة التناسب او النظام او العدد من جهة اخرى . ومن هنا فقد استندت النزعة الافلاطونية الشكلية الى اسس فيثاغورية محضة ، وأصبح لفلسفة افلاطون الجمالية صبغة ميتافيزيقية استحدثها من مفهوم « النظام » او « الشكل » او « الصورة » . ولكن محاولة « الجمهورية » قد اضافت الى هذا العنصر الكمي عنصرا اخر كيفيا، فأكدت اهمية فكرة « الانسجام » ، سواء في النفس أم في الدولة . وهكذا اصبح « الجمال » في نظر افلاطون بمثابة توافق بين القوى الجسمية والملكات النفسية في داخل الفرد الواحد ، كما صار التناسب أو التآلف أو الانسجام مصدر كل ما في العالم من جمال .

* * *

تلك هي الخطوط العريضة في فلسفة افلاطون الجمالية ، حاولنا عرضها بايجاز ، وعمدنا الى ربطها بالاصل السقراطي الذي صدرت عنه . وليس من شك عندنا في ان افلاطون قد ربط حكمه على الفن بنظريته الفلسفية في المثل ، فضلا عن انه قد جعل من الفن مجرد واسطة تخدم الاخلاق . ومن الغريب ان هذا الفنان العظيم الذي تضعه محاوراته العديدة في مصاف كبار الشعراء ، لم يستطع ان يقدم لنا نظرية حقيقية في الفن ، بل هو قد اقتصر على البحث في مفهوم « الجمال »، دون ان نتمكن من اقامة تفرقة واضحةالمعالم بين القيم الثلاث المعروفة : الحق، والخير ، والجمال . وعلى الرغم من ان افلاطون قد قطن الى أهمية « الجمال الحسي » ، فتحدث عن جمال الالوان والاشكال والاضواء والانغام ، الا انه سرعان ما ضحى بهذا « الجمال الحسي » الذى تقوم عليه شتى الفنون ، لحساب ضرب من « الجمال المطلق » الذى اقتضته ضرورة فلسفية هي القول بنظرية المثل ! وهكذا انتصر افلاطون الفيلسوف على افلاطون الفنان ، ما دامت الفلسفة تأملا مباشرا للمثل، في حين ان الفن هو مجرد تقليد لاشباح المثل !

وكم كان افلاطون قاسيا في حكمه على فنون كالشعر او التصوير مثلا !.. أ لسنا نراه يزعم ان المصور او الشاعر

انما يقتصر على النقل عن المحسوس ، فيقدم لنا ـ مثلا ـ صورة لنجار أو اسكافي ، دون ان يكون على علم بمهنة الواحد منهما او الاخر ، وكأنما هو يريد ان يخدع الاحداث والبسطاء ؟! بل السنا نراه يدرج الشعر في باب الوهم، ويقرر ان التمويه الذي يقوم عليه يمثل خطرا داهما على النظام الاجتماعي ؟ فهل من عجب بعد هذا كله ان نراه يرفض مبدأ الفن للفن ، ويقرر ان المعيار الاوحد للحكم على سائر الفنون انما هو « العدالة » أو الانسجام الاخلاقي؟.. ولكن المهم انهذا الحكم الافلاطوني المجحف على فنون كالشعر او التصوير قد اضطر كثيرا من المدافعين عن الفن ـ في عصر النهضة ـ الى اصطناع شتى الحجج من اجل نفي صفة التمويه او الايهام عن الفنان، فقال بعضهم ـ مثلا ـ انه لكي ينجح المصور في رسم لوحة صادقة لموسيقار أو خطيب ، فلا بد من أن يكون على علم بالموسيقى او الخطابة ، ولكي يتمكن المثال من نحت تمثال لبطل ما من الابطال ، فانه لا بد له من ان يكون على علم بفن الحرب، او ان يكون هو نفسه جنديا مغوارا !

وأخيرا ، قد يكون في وسعنا ان نأخذ على افلاطون ايضا انه قد وقف من الفن موقف المحافظين الذين يرفضون كل جديد ، ويعتبرون « التقدم » مرادفا للانحلال او التفكك! والواقع انافلاطون قد اعترف في كتابه «القوانين» بأنه ليس من حق الفنان المحدث ان يضرب عرض الحائط بخبرة الاف السنين، خصوصا وان «القديم» هو «الاصيل» دائما .. ولسنا ندري لماذا استبعد افلاطون من دائرة الفنون كل ابتكار فردي او تجديد شخصي ، اللهم الا اذا كانت نزعته الاخلاقية المتطرفة قد صورت له التجديد بصورة الشذوذ او الخروج على القاعدة ، وهو الحريص على توطيد دعائم « العدالة » في الفرد والمجتمع معا ـ . ومهما يكن من شيء ، فقد اعتبر افلاطون « الفن » مجرد مدخل الى « الفلسفة » ، كما جعل « الفنون » مجرد وسائط في خدمة « الاخلاق » ، ومن هنا فقد اختلط عليه الجمال بالخير ، ولم يستطع علم الجمال عنده ان يصبح اكثر من باب من ابواب فلسفته الميتافيزيقية المثالية . وسيكون على أرسطو ـ من بعد ـ أن يتلافى هذا النقص ، فيقدم لنا نظرية جمالية في الفنون ، بدلا من ان يقتصر على عرض مذهب ميتافيزيقي في الجمال

زكريا ابراهيم

(القاهرة)

مراجع البحث :

١ ـ R. Bayer : **Traité d'Esthétique** », Paris, Colin, 1956, Livre IV, Ch. II

٢ ـ D. Huisman : **L'Esthétique**», Paris, P. U. F., 1954. Première Partie.

٣ ـ P.M. Schull: «**Platon et l'Art de son temps**», 2 éd., Paris, P.U.F., 1952.

٤ ـ الدكتور احمد فؤاد الاهواني : « افلاطون » (مجموعة نوابغ الفكر الفربي) ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧.

٥ ـ الدكتور عبد الرحمن بدوي : « أفلاطون » (خلاصة الفكر الاوروبي) ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية .

٦ ـ يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة اليونانية » ، لجنة التأليف، الطبعة الثانية .

دار النشر للجامعيين

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع ـ يشرف عليها لجنة من الجامعيين

المدير المسؤول : محمد انيس الطبلاع

بيروت ـ شارع سوريا ـ بناية درويش ، هاتف ٢٠٧٢٧ ـ ص . ب ٣٨٧٤

تفخر بأن تقدم للقارىء العربي الروائع التالية :

		السعر ق.ل
أنّا كرنينا	**تأليف ليو تولستوي**	**٥٠٠**
امرأة من روما	**تأليف البرتو مورافيا**	**٦٠٠**
الآمال الكبيرة	**تأليف تشارلز ديكنز**	**٥٠٠**
الارض العذراء	**تأليف بيار روفائيل**	**٤٠٠**
الناصر لدين الله	**تأليف سيمون حايك**	**٤٠٠**
جندي مع العرب ((طبعة ثانية))	**مذكرات كلوب باشا**	**٥٠٠**
الماركسية في الفلسفة	**تأليف حسني ناثان**	**٦٠٠**
المبادىء العامة للفقه الجعفري	**تأليف هاشم معروف الحسيني**	**٦٠٠**
هكذا تكلم زرادشت	**ترجمة غياث حجار**	**٤٥٠**
ابن هانىء الاندلسي	**تأليف الدكتور منير ناجي**	**٥٠٠**
ليبيا العربية	**تأليف الدكتور ممدوح حقي**	**٣٠٠**
تاريخ الفقه الجعفري	**تأليف هاشم معروف الحسيني**	**٤٠٠**
المرأة في حضارة العرب	**تأليف محمد جميل بيهم**	**٥٠٠**
قبس من الاسلام	**تأليف الشيخ معوض عوض ابراهيم**	**٥٠٠**
الحلة السيراء	**تحقيق الدكتور عبدالله الطباع**	**١٥٠٠**
فتوح البلدان	**تأليف البلاذري**	**١٥٠٠**
الصيد والطرد عند العرب	**تأليف الدكتور ممدوح حقي**	**٣٠٠**